فكاهات

رواية

عبرة الوالدين

كان في احدى مدن القطر شابٌ لطيف الذات حلو الشمائل يقال لهُ غونو من اسرةٍ اجنبية استوطنت الديار المصرية منذ نحو سبعين سنة فشبّ على شيءٍ من العلم لان اسرتهُ لم يكن في سعتها ان تبعثهُ الى احدى مدن اوربا فاكتفت بادخالهِ بعض المدارس الاجنبية في البلاد فتلقى فيها ما وسعهُ تلقيه من العلوم اللغوية والرياضية ثم دخل في خدمة احد التجار من قومه فعُرف بالثبات والصدق والامانة وشرف النفس . وكان يتجنب الناس ويؤثر الوحدة لما كان يرى في غالب الذين خالطهم من الرياء والخداع والكذب حيث لا تسمع الاذن الا اطراءً ومدحاً او اغتياباً وقدحاً او وقوعاً في اعراضٍ طاهرة او تبجيلا لاقدار منحطة او تقديساً لمادّةٍ ألّهوها فلم يتفقوا الاّ على ان يحنوا مفارقهم للاصفر الرنان ذي الوجهين فهم يكادون يسبحون بحمدهِ واذا آنسوا وجودهُ في حوزة احد عابديهِ عظموا قدرهُ واجلّوا منزلتهُ وان كان في علمهِ وعقلهِ وآدابهِ لا تعادل قيمتهُ قيمة الثوب الذي يلبسهُ

وكان غونو من نحو سنتين من الزمان قد ابصر فتاة في زهرة العمر فشُغِف بها وهام بحبها لما عرف فيها من كمال الادب ووفور العقل وشرف

الاخلاق وطهارة القلب . وكانت الفتاة تسمى لينا وقد جمعت بين جمال الخلق وكرم الاخلاق فرأت في صفات غونو ما حملها على حبهِ ولم تكن تعرف الحبّ من قبل فاسلمت قيادها للهوى وعلم كلٌّ منهما بميل الآخر اليهِ فاجتمعا وباحا باسرار هيامهما وتحالفا على الحبّ الدائم واقاما يتوقعان حلول الزمن الملائم لإطلاع اسرتيهما على سرّ حبهما وعهودهما ولعقد الخطبة وقضى الحبيبان اياماً كلها هناءٌ وسعادة ولم يدر في خلدهما ان الشقآء واقفٌ لهما بالمرصاد

وبعد ذلك بايامٍ قضت الدواعي بتفرق الشمل حيناً من الزمن فودّع كلٌّ حبيبهُ على امل اللقآء القريب وكان الدمع والتنهدات افصح خطيبٍ في بيان لوعة الفراق . وبعد اسابيع معدودة اجتمع شمل الحبيبين وانستهما حلاوة اللقآء مرارة الفراق وكان حبهما يزداد يوماً فيوماً حتى ملأ جوارحهما فلم يكن لهما حديثٌ غيرهُ ولا شاغلٌ الاّ امل الاتحاد العاجل

وفي ذات يوم ذهب غونو زائراً بيت حبيبتهِ وقد وطّد عزمهُ على مفاتحة آلها بالامر وكشف السرّ فلم يجد غير والدتها . فاستقبلتهُ كعادتها بوجهٍ باشّ ورحبت بهِ وبعد ان استقرّ بهِ المقام قال لها ان زيارتي لكِ الآن يا سيدتي تتعلق بامرٍ سيكون لهُ اعظم شأنٍ في حياتي وبكلمةٍ منكِ تتمّ سعادتي او يبدأ شقآئي . فاعلمي يا سيدتي اني احبّ ابنتكِ حباً صادقاً طاهراً واعتقد ان حبها لي لا يقلّ عن حبي لها فاتوسل اليكِ ان تجيبي طلبي وتعربي لي عن رضاكِ ان تتخذيني لكِ ابناً بان تجعليها شريكةً لي في حياتي ونعيش كلانا تحت جناح حبكِ الوالدي

فدهشت الوالدة من هذه المفاجأة وعلت وجهها امارات الحيرة والغيظ

وبعد سكوت بضع دقائق قالت وقد قطّبت جبينها كنت احسب ابنتي كاختٍ لك ولم يمرّ قطّ ببالي ان تبادل الزيارات يؤدّي الى هذا الحبّ الذي تذكرهُ وما كنت امنعك طلبك لولا وجود عائق لا سبيل الى ازالتهِ ولا تسلني عن هذا العائق ولكن اعلم اني لا استطيع ان اعطيك ابنتي زوجةً مهما كان حبكما شديداً ومهما كانت آمالكما في الاقتران وطيدة . قال رحماكِ يا سيدتي لا تقطعي املي واشفقي على قلبين صيّرهما الحب واحداً واني استحلفكِ بالحبّ الذي اظنكِ ذقتِ طعمهُ وبالشفقة التي هي من خصائص طبع المرأة وبالدين الذي هو ملجأ النفس الخالدة ان لا تضعي في سبيلنا عقبات ولا تكوني قاتلة متعمدة . قالت انت تعلم اني احترم آدابك واخلاقك ولو كان زواجكما ممكناً لما وجدتني معارضةً فيهِ ولكني اقول لك بصراحة انهُ مستحيل فارغب اليك مذ الآن ان لا تعود الى زيارتنا ولا تحاول مشافهة ابنتي ولا مكاتبتها ولست اكتمك اني من هذه الساعة ساسعى في قطع كل علاقةٍ بينكما وساجتهد في نزع حبك من قلبها . وانا اعلم يقيناً ان هذا الامر سيكون لهُ عليكما وقعٌ اليم ولكن الدهر ابو العجب فلا يمضي زمانٌ حتى تنسيا حبكما وربما ابان لكما المستقبل حكمة صنيعي الذي يعدّ الآن انهُ قساوة ...

ولما قالت هذا نهضت وسلّمت فاضطرّ ان يخرج من المنزل وهو كالطريدة التي قد شقّ سهم القناص صدرها

***

لما كان غونو زائراً كانت حبيبتهُ في احدى غرف المنزل ترتّبها وتصلحها

شأن الفتيات الفاضلات فسمعت صوت اقفال الباب بشدة فخرجت لتعلم السبب فوجدت والدتها جالسةً في غرفتها وهي مفكّرة مغمومة فاسرعت اليها تقبّلها وتلاطفها وتسألها عن سبب غمها فدفعتها والدتها عنها بعنفٍ وقالت لها ابعدي عني فقد خاب املي فيكِ . وللحال سقطت الدموع من عيني لينا وقالت وهي تكاد تشرق بدمعها ما معنى هذا الكلام يا اماه . فرقّ قلب الوالدة هنيهةً ثم عادة فقطّبت جبينها وقالت وقد حدّقت في عيني ابنتها كانها تحاول قرآءة صحيفة قلبها أعرفتِ من كان عندي الآن . قالت لا . قالت جآء غونو يزورني فصرفتهُ

فاشرق جبين الفتاة عند ذكر اسم حبيبها ثم رأت في وجه والدتها ملامح الغيظ فتعجبت وقالت وهل كانت زيارتهُ سبباً في إسخاطكِ . قالت نعم . قالت ولماذا . فقالت لانهُ اخبرني انهُ يحبّكِ وانكما تعاهدتما على الحب ولم يكن من قبل يخطر لي ان ابنتي التي افرغت وسعي في تربيتها وتهذيبها تنخرط في سلك اهل الحب والغرام

فجثت لينا امام والدتها واخذت يدها وقبلتها باحترام وقالت بصوتٍ يتقطع حيآءً ووجداً اما وقد ازفت الساعة فلا بدّ لي من ان اطلعكِ يا والدتي الحبيبة على سرّ قلبي . اني احببت غونو حبًّا ملأ كل جوارحي حتى حسبت انهُ اذا كان لي في هذه الحياة سعادة فهي بان اكون زوجتهُ وشريكة حياتهِ فقد احببتهُ من اول يوم وقع نظري عليهِ وكنت ازداد شغفاً بهِ كلما سمعتكِ تذكرينهُ وتثنين على حسن سجاياهُ وآدابهِ وذلك مما شجعني على كشف سرّ حبي لهُ فوجدت انه يحبني اضعاف ما انا احبهُ فتعاهدنا

على ان نكون شريكين في هذه الحياة لا يفرق بيننا غير الموت . ولو علمتِ يا اماه ما في حبنا من الطهارة وما في عهودنا من متانة الروابط وما في قلوبنا من شدة تعلق احدنا بالآخر وما في طباعنا واخلاقنا من الاتفاق والامتزاج لباركتِ هذا الحب وكنتِ اعظم مساعد على تحقيق آمالنا . ولست انكر انهُ كان الاحرى بي ان اطلعكِ على سرّ قلبي من اول ساعة عرفت فيها الحب ولكنكِ لا تجهلين ان المحب يكون كثير التردُّد والوجل وهذا الذي اخّرني عن التصريح بما في ضميري الى هذه الساعة . فأزيلي هذه العبوسة عن وجهكِ يا اماه وقولي انكِ صفحتِ عني ورضيتِ عن حبي واختياري ...

فقالت اصمتي ايتها الغبية ولا تزيدي كلمةً في هذا المعنى واعلمي ان زواجكِ بهذا الشاب من الامور المستحيلة . قالت ولِمَ ذاك . قالت لان الحب وحدهُ لا يكفي لراحتكِ وسعادتكِ فان كنتِ متوهمةً فيهِ انهُ من اهل اليسار او كان قد غرّكِ بشيءٍ من ذلك فاعلمي انكِ مخدوعة ونحن اعلم منكِ بحالهِ . قالت اني لا اجهل حالهُ ومعاذ الله ان يكون قد غرّني او خدعني بل قد اطلعني بكل صراحة على حالتهِ المالية فانا اعلم يقيناً انهُ لا مال لهُ في المصارف ولكنهُ رجلٌ مجتهدٌ عاملٌ يكسب في يومهِ ما يكفي لنفقات بيتٍ وزيادة وهو غنيٌّ في آدابهِ وحسن سيرتهِ وصدق حبهِ وهذا كل ما تطمح اليهِ نفسي . وفضلاً عن ذلك فمتى كانت لهُ زوجة فاضلة مدبرة فلا شك ان الحالة المالية تزداد تحسيناً . فقالت اخرسي فانتِ لا تعرفين خير نفسكِ اما انا فقد وطّدت عزمي على ان لا ازفّكِ الاّ الى رجلٍ ذي ثروة واسعة فتعيشين معهُ عيشةً سعيدة وترفلين في الحرير وتتزينين

بأثمن الحلى والجواهر ويكون عندكِ الخدم والعربات وكل ما يستطيع المال ان يقتنيهُ . قالت ولكن المال لا يشتري الحب يا اماه والسعادة لا تتمّ الا بصدق الحب وامتزاج الارواح وانا راضية عن ان اكون زوجةً لغونو فاشاركهُ في سعادتهِ وشقآئهِ وسروره وحزنهِ فلماذا تكسرين قلبي بهذا الكلام . قالت حسبكِ فلا تطيلي من الجدال ولا تحاولي ارجاعي عن عزمي فاني لا ازوّجكِ الا برجلٍ من اصحاب الثروة سوآءٌ احببتهِ ام لا فان الغنى هو السعادة والشرف وفخر الحياة فآمركِ مذ الآن ان تنزعي حبّ غونو من قلبكِ وان لا تكاتبيهِ ولا تكلميهِ اذا التقيتما واعلمي انهُ يسهل عليّ ان اراكِ ميتةً من ان أراكِ زوجةً لهُ . وما بينكما من الحب ليس الا وهماً يستولي على القلب والنفس والحواس فاذا كان حبكِ يسهّل عليكِ مراغمتي بان تقترني برجلٍ لا اقدر ان اقول عنهُ ان عندهُ كذا الوفاً من الدنانير فانهُ يسهّل عليّ ان اقول لكِ موتي بحرقة هذا الحب العقيم ولا شفى الله لكِ من حبيبكِ قلباً ولا حقق لهُ فيكِ املاً

***

مرّت ايامٌ كثيرة حالت فيها القطيعة دون اجتماع المحبَّين فاستعرت نار الوجد في فؤاديهما وقطع اليأس حبل آمالهما وصارا الى حالةٍ يرقّ لها قلب العذول وحال البعد بينهما فعجزت الرسائل واللحظات ان توصل لاحدهما ما يكنّ فؤاد الآخر من الحب لهُ وما يقاسي من اجلهِ . واشتد الحال على غونو فلم يستطع الصبر على مصيبة الهجر فكتب الى حبيبتهِ يؤكد لها حبهُ الشديد الدائم ويوصيها بالمحافظة على عهد حبّهِ والصبر على جور الزمان الى

ان تزول المحنة وتستقيم الحال . واذا برسالتهِ قد رُدَّت مصحوبةً بردٍّ شفاهي مع الرسول مآلهُ ان لينا قطعت كل علاقة حبية سبق وقوعها بينهـا وبين غونو وانها كانت في زمن الطيش تحبهُ فاراها التعقل ان هذا الحب عقيم وانهُ مؤذٍ للفريقين . ومن ذلك الحين اصبحت تتجنبهُ وامتنعت عن ان ترسل اليهِ تلك النظرات التي كان في كل واحدة منها ما يملأ مجلداً من معنى الحب والاخلاص

ولو كان حب غونو حبًّا شهوانيًّا لكان قوي على نزعهِ من فؤادهِ ولكن حبهُ كان طاهراً كالنفس ممازجاً قلبهُ كالحياة فلم يقدر ان يتغلب على عواطفهِ وينسى حبيبتهُ وعهودهُ فاشتدت بهِ الاشجان واخذت نيران الوجد تاكل فؤادهُ شيئاً فشيئاً ومشى الى القبر بقدم مسرعة

. . . . . .

توفّقت الوالدة بعد البحث والتنقيب الى وجود فتى من ابناء الأُسر الغنية فصارت تستدعيهِ الى منزلهـا وتدعوهُ الى تناول الطعام مراراً في الاسبوع وكانت بعد النهوض عن المائدة تدعو لينا لمجالستهِ ومحادثتهِ حتى تعلق قلبهُ بالفتاة وكثر بعد ذلك تردده على البيت واخيراً عزم على الاقتران بلينا فعقد خطبتهُ عليها رغماً عن تصريحها لهُ بانها لا تحبهُ ولا تريدهُ لها بعلاً لانها مرتبطة بحب سواهُ مقيّدة بعهودٍ وثيقة لا تُنقَض

وفي اليوم المعين احتفل بزفاف لينا الى خطيبهـا الغني الذي لم يعرف الراوي اسمهُ ولا لزوم لمعرفة الاسم فان المراد بالزوج في عصر التمدن المصنّع مالهُ لا شخصهُ وسواءٌ كان رجلاً او شبه رجلٍ فلا تهمّ احداً معرفة اسمهِ

ورسمهِ . ولم يشهد اهالي المدينة حفلة زفافٍ اعظم منها فكانت العربات الفاخرة تجرّها الجياد المطهمة تسير على طريقٍ مفروشة بالازهار البهية والمدعوون يرفلون في الوشي والديباج وقد لبسوا من الجواهر اجملها رونقاً واغلاها قيمةً وكان العروسان لابسين افخر الملابس واثمن الحلى حتى حسد الناس لينا على ذلك الزوج المثري الذي كان يقدر ان يفرش لها الارض ذهباً لو ارادت . وبعد عقد الاكليل سيقت العروس الى بيت بعلها كالنعجة للذبح وكان الناس يهتفون سروراً وهي تبكي على ميت الحب في فؤادها

***

اذا غرزت مسماراً في خشبة ثم قدرت ان تنزعهُ منها فانك لا تستطيع ان تنزع أثرهُ والحب الحقيقي اذا دخل قلباً صادقاً لا يمكن ان ينزع منهُ البتة . رأى صاحبنا غونو ان حبيبتهُ اصبحت ملكاً لغيرهِ وقطع كل امل من احرازها لنفسهِ ولكنهُ لم يقدر ان ينسى حبها مع ظهور الحقيقة لهُ انهُ اصبح حباً عقيماً وكان يزيدهُ ألماً تذكار الماضي الذي تمثلت لهُ فيهِ السعادة بابهى مظاهرها لما كان ثملاً بحبٍ متبادل متمتعاً بقرب لينا تمتع الندى بوجنة الورد وثغر السوسن . ففكر في الانتحار ولكن اعتقادهُ بالله والابدية حالا دون ذلك فاستسلم لهواهُ وترك للطبيعة ان تتصرف بهِ كيفما شاءت فكان يعيش كمن تنكب الموت عنهُ الى حين فلم يهتم بحفظ حياتهِ ولا سعى الى ازالتها ولكنهُ بقي بدون ارادة ولا عزم ولا اطماع ولا مقاصد وهكذا تكون حال كل من امتلكهُ الحب واذلّهُ اليأس . وبقي غونو على هذه الحال عائشاً عيش رجلٍ منسيّ الى ان اراحهُ الله من عذابهِ بان استردّ منهُ وديعة حياتهِ

* * *

اما لينا فحصلت في بيت زوجها على كل ما تشتهيه العين من مطالب هذه الحياة وتوفرت لديها كل اسباب الرفاهية والأُبّهة وكل ما يمكن المال ان يجلبهُ ولكنها عاشت في بيتها الجديد بلا حب لان قلبها كان قد جمد وكانت والدتها قد اماتت فيهِ قبلا كل عاطفة حب وحنوّ وشفقة فعاشت غنية في كل شيء الا فيما يجعل الحياة سعيدة وهو الحب المتبادَل والوداد الصادق . وكانت تحسب نفسها اثيمة بانها اقترنت بزوجين اذ انها حسبت غونو زوجها الحقيقي الذي خُصَّ دون غيرهِ بان يفتح مغاليق قلبها للحب وعجزت دنانير زوجها ان تشتري لها دعة البال وصفآء العيش فبقيت حيّةً مقتولة بسيف ظلم والدةٍ حكيمة ....

ولم يأتِ على لينا طويل زمنٍ حتى سقمت فلزمت الفراش وانقطعت عن الطعام والشراب واستحضر لها زوجها امهر الاطبآء فعجزوا عن تشخيص دآئها ولم تكن ادويتهم الا لتزيد جسمها اعتلالاً واوصالها هزالاً ولسان حالها ينشد قول الشاعر

يا ويح اهلي يروني بين اعينهم على الفراش ولا يدرون ما دآئي

حتى اذا كانت في احدى الليالي وامها الى جانبها وهي غارقة في غيبوبة المرض اذ ارتعشت رعشةً شديدة وسمعتها والدتها تقول لقد احرقتني يا غونو ثم شهقت شهقةً كان فيها آخر انفاسها فاسرعت والدتها لتنظر ما اصابها فاذا هي جثةٌ بلا روح راعول